الفصل الثالث

من وسائل الدعوة

١ ـ الحوار .

٢ ـ ضرب الأمثال .

٣ ـ وسائل أخرى .

• • •

من واجبات المدعو

وإذا توقعنا الداعية بهذه الأسلحة .. فإنها ـ إن صح التعبير ـ مع إيقاف التنفيذ .

بمعنى : أن تأثيرها متوقف حتى تتم بصلاحية المدعو لقبول النصيحة .

إننا نتصور الآن فلاحًا يضع بذوره فى أرض سبخة أو صخرة جامدة .. إن هذه البذور سوف تموت .

أما إذا تهيأت لها التربة المناسبة .. فلسوف تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها .

ونستأنس هنا بقوله عز وجل : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٠] .

بمعنى أن الذى يؤثر فيه الوعظ هو من اتصف بالخشية ..

أما المدعو الساهى اللاهى .. فقد ظلم نفسه أولاً .. والداعية ثانيًا .. والدعوة أخيراً .

ولاحظ أنها الخشية .. ولا يكفى الخوف ..

والخشية هى : إحساس بهيبة الداعية .. وأهليته أن يطاع فيما يأمر به .. وما ينهى عنه ..

وما أكثر الدعاة المظلومين .. والذين تحملهم مسؤولية عقم الدعوة فى هذا الزمان .. والظالم .. قد يكون هو المدعو نفسه .. والذى يجيئه الهدى من الله تعالى على لسان داعية مجاهد .. ولكنه لم يقيد هذه النعمة بالإقبال عليها .. فكان ما كان مما لست أذكره !

• • •

من أدلة القرآن

مدخل :

لا تنحصر مهمة الداعية فى مجرد توصيل المعنى .. وإنما مهمته مع هذا وفوق هذا :

أ ـ التأثير .

ب ـ ثم كسب المدعو .

ولذلك سمعنا أن أمير الشعراء شوقى كان يؤلف القصيدة .. ثم يناوله من هو أحسن منه أداء ليلقيها .. إرادة مزيد من التأثير .

وفى القرآن شاهد : ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ﴾ [القصص: ٣٤] .

يقول عز وجل : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون: ٩١] .

يزاوج الإسلام أو يوازن بين العقل والعاطفة فى أدلته ، وفى هذه الآية : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ ﴾ [المؤمنون: ٩١] ، ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وهذا حظ العقل : مع أنها القضية المستدل عليها . لكن الدليل العقلى هو الواقع .

فنظام الكون الحالى شاهد بأنه إله واحد .. حيث لا أثر هناك لخلاف .

أما حظ القلب فهو : مجموعة من المشاعر .. الخوف ، والحزن ، والقلق ، لو تصورنا اختلافًا .

ومن خصائص الأدلة القرآنية :

أنه يعرض بأمانة قضية الخصم .. ثم يفندها .

وبعد ذلك يثبت قضيته وبالدليل . فكأنه يقوى القضية مرتين :

مرة بنفى نقضيها ، ومرة بإثباتها .

يقول الله عز وجل : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥] .

يقول د . محمود حب الله [١] :

[وتلك هى الوسائل التى تتفق وطبيعة الإسلام من ناحية .. وتتفق مع طبيعة الناس المدعوين إليه من ناحية أخرى :

فالحكمة هى : المقال المحكم الذى يشهد العقل بصحته وذلك هو الدليل المنطقى الذى يبين الحق الذى يؤمن به كل عقل . ويهتدى به كل ذى نظر .

وهو يناسب العقلاء ، وأرباب النظر ..

والموعظة الحسنة هى : تلك العبر النافعة ، والمواعظ الطيبة التى تهدف نحو تربية الوجدان ، على نحو لا يلغى العقل والنظر .

وبأسلوب : تبدو فيه المناصحة ، ويظهر منه العطف والمحبة .

وذلك أسلوب يناسب العوام .. والمجادلة بالحسنى هى المناظرة التى لا يقسو فيها المناظر على خصمه ولا يجابهه بما يكره .. بل يتعمد الرفق واللين . ويختار أخف الوجوه وأيسرها .

---

(١) الحياة الوجدانية (٢٨٦، ٢٨٧) .

فهو : جمع بين المنطق والعاطفة . . يناسب المعاندين بوجه خاص لأنه قمين بأن يلين منهم القلوب ويصرفهم عما هم عليه من عناد] .

ولأن الإسلام دين شامل : يخاطب أفكار الإنسان كلها : نفسية ، وعقلية ، وقلبية .

إذا كان الإسلام كذلك . . فإن قصر أسلوب معين على صفة بعينها . . ظلم . .

وإذن .. فمن المفيد أو من الحكمة أن تخاطب طبقة معينة أحيانًا بكل هذه الأساليب . . ليمنح الدعوة ولاءه كلـه . . يضاف إلى ذلك أن يكـون الداعيـة قدوة .

فقد تكون العقيدة فى ذاتها قوية لاعتمادها على المنطق السليم . . ولكن لابد من أن يستمر بقاؤها كطاقة دافعة إلى عمق الخير . . وذلك لا يتم إلا بالعمل بها . .

هذا العمل الذى يثبت الله به العقيدة فى القلوب . . فإذا ضعف العمل ضعفت العقيدة تلقائيًا . . كما تذبل الشجرة الناضرة . . بعدما منع عنها الماء . .

وإذ يعنى ذلك ضرورة أن يكون هناك عاملون مخلصون . . بهم يكون العمل حركة إيجابية واضحة . .

ولن يكون إخلاص وعمل إلا إذا اختار الإنسان عقيدته . . وبلا إكراه :

[لأن الإكراه فوق أنه منهى عنه من ناحية المبدأ ـ عديم الجدوى من ناحية الاعتقاد . ومن ناحية العمل .

وذلك لأن الإكراه هو : أن يلجئ المرء إلى الأخذ بما لا يؤمن به وإلى العمل بمقتضاه .

وإنه لمن الهين أن تجعل المرء يعمل بما تحب . ولكنه من المستحيل أن تجعله

يعتقد مكرها . . وأن تجعله يعمل وفق اعتقاده] .

وقد لاحظ العلماء وصف « الموعظة » بالحسنة . . وذلك يعنى : أن من المواعظ ما يكون رديئًا . . أما الحكمة فلها من اسمها نصيب : فهى محكومة بمبادئ الأخلاق . . وقواعد الذوق . . فكلها حسنة . . وقد اشترطت الآية الكريمة أن يكون الجدال « بالتى هى أحسن » لا حسنة لأن وقت الجدال تتوتر الأعصاب . وقد يعتبر أحد الطرفين رأيه جزءًا من ذاته ، ومن ثم يثور على غريمه بهذا الاعتبار . . فكان لابد من « الأحسن » .

وهو ذلك المعنى الذى قال فيه الشاعر :

اخلع ببغداد العذارا ودع التنسك والوقارا

فلقد بليت بفتية ما إن يرون العار عارا

لا مسلمين . . ولا يهود ولا مجوس ولا نصارى!!

وذلك يعنى : أن المجادل قد يظن اعتراضك على رأيه يساوى خصمه من شخصيتك . . بعدما عدّ رأيه من ذاته . .

ومن أجل ذلك كان لابد فى الجدال بالذات . . أن يكون بالتى هى أحسن .

وفى النهاية نقول : صدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩] .

مثال :

أفلم يروا . . المعطوف عليه : أعموا . . فلم يروا . . لكنه عز وجل أضمره . . ليحس المدعو بشوكة تكاد أن تدميه . . فلعله أن يستيقظ من غفلته . .

يقول عز وجل فى سورة البقرة : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ... ﴾ [البقرة: ٢١] .

١ ـ إثبات الصانع .

٢ ـ وصفات كماله من القدرة والعلم .

٣ ـ ثم حدوث العالم .

٤ ـ إثبات النبوة .

توحيد الربوبية (فلا نعمة إلا منه) .

هو دليل : توحيد الألوهية .. فلا معبود سواه .

دليل الخلق (الاختراع) : خلقكم ..

دليل العناية : أنزل من السماء ماء .. وسخَّر ...

إذا كان الله سبحانه وتعالى أنشأ كل هذه الأفعال العظام .. فكيف تعبدون غيره ؟!

ولكنهم فضَّلوا الحرب .. على ما فيها من دمار .. فضلوها على البرهان .. الساطع البيان .

مثال « البعوضة » :

١ ـ التمثيل بالبعوضة يوضح الحق .. والذى يوضح الحق كيف يُستحيى منه؟!

٢ ـ فى البعوضة ما ليس فى « الفيل » !!

عن « سلمة بن سبرة » قال : خطبنا « معاذ » بالشام فقال : أنتم المؤمنون .. وأنتم أهل الجنة .. والله : إنى أرجو أن يُدخل الله مَن تسبُّون من فارس والروم الجنة ! وذلك بأن أحدكم إذ عمل له ـ يعنى أحدُهم عملاً ـ قال : أحسنت .. رحمك الله .. أحسنت .. بارك الله فيك ..

ثم قرأ : ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ [الشورى: ٢٦] .

والمعنى : يستجيب لهم الدعاء . ولأصحابهم وإخوانهم مثل قوله تعالى : ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥] .

والمراد بالفضل : الشفاعة لمن وجبت لهم النار . . ممن صنع إليهم معروفًا فى الدنيا .

وقيل : يشفعون فى إخوان إخوانهم] (١) .

قالت « أم سليم » رضي الله عنها : يا أبا طلحة : ألست تعلم أن إلهك الذى تعبد إنما هو شجرة تنبت من الأرض . . نجرها (٢) حبشى بنى فلان ؟!!

قال : بلى .

قالت : أما تستحى تسجد لخشبة تنبت من الأرض ونجرها حبشى بنى فلان؟!!

قالت : فهل لك أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وأزوجك نفسى لا أريد منك صداقا غيره ؟

قال لها : دعينى حتى أنظر .

قالت : فذهب فنظر . . ثم جاء فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله . قالت : يا أنس . قم فزوج أبا طلحة] (٣) .

• • • •

تطوير أسلحة الهجوم

١ ـ كانت « الكنيسة » قبل الحروب الصليبية تتحدث عن ضعف المقاتل المسلم.

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ـ سورة الشورى .

(٢) نجر ـ ينجرُ : نحت .

(٣) الطبقات الكبرى (٨/ ٤٢٧) .

٢ ـ بعد ذلك .. ظهر فرسان مسلمون .. وأخلاق فرسان ..

٣ ـ عندئذ بدأ الشك فيما أذاعه الرهبان عن ضعف المسلمين .

٤ ـ وظهر ذلك فيما قرره [بطرس الراهب] : وذلك .. أنه أذاع معلومات موثقة عن صدق الرسول وديانته .

أما نحن : فبعد تطوير الأزهر .. ما زالت كليات القمة تستقطب المتميزين.. ويذهب إلى كليات الدعوة .. المتوسطون .. بل المتأخرون !!

● ● ●

الخطيب

تمهيد :

إذا كان « الداعية » يتحرك فى دائرة أوسع..

وإذا كان « الواعظ » مثله إلى حد ما ..

فإن « الخطيب » أثقلهم حملاً .. بما يفرض عليه من قيود لابد منها لينجز مهمته ..

ومن هذه القيود : [من الناحية الفنية]

١ ـ وحدة الموضوع .

٢ ـ دراسته دراسة تصل به إلى الرأى الناضج .

٣ ـ قوة الأسلوب .

٤ ـ الإلقاء المعبر .

٥ ـ قراءة مستوعبة يجدد بها معلوماته وحتى لا يكرر نفسه .

٦ ـ القدرة على الارتجال .

الخطابة

أجمع ما قيل فى تعريفها :

[فن من فنون الكلام . غايته : إقناع السامعين واستمالتهم والتأثير فيهم بصواب قضية أو بخطأ آخر .

وعن أهميتها : يقول العلماء : إنها فن وُجد مع الإنسان . . وارتقى برقيه . . وهى : ضرورة من ضرورات المجتمع . .

أما أسبابها ودواعيها فهى : الانقلابات الدينية والسياسية والاجتماعية والحروب . وتنازع الأحزاب . . وإصلاح ذات البين .

ومن أهميتها أنه كان لها من الهيبة ما يخلع قلب الخطيب . وإن كان فى الذروة .

ذات يوم . . جلس الخليفة « الناصر » على كرسيه . . وبين يديه حملة الهدايا التى أرسلها إليه الإمبراطور « قسطنطين » وأخوه . .

وتقدم الفقيه « محمد بن عبد البر » ليرحب بالضيوف نائبًا عن الخليفة . .

وكانت المفاجأة المذهلة : لقد سقط الفقيه الكبير مغشيًا عليه تحت ضغط المهيب . .

وحاول العلامة « أبو على القالى » صاحب كتاب « الأمالى » لينقذ الموقف . . وفعلا : حمد الله تعالى وأثنى عليه . . ثم توقف !!

ومن حسن الحظ أن كان « منذر بن سعيد » حاضراً فأنقذ الموقف بلباقته . . حيث أكمل افتتاحية « أبى على القالى » ثم كانت منه خطبة عصماء . حتى قال المنصور بعد فراغه من خطبته : [والله لقد أحسن ما شاء ولئن أخرنى الله بعد . . لأرفعن من ذكره] واستدعى الناصر ابنه « الحكم » وأوصاه بأن يستخلصه لنفسه ، ويرفع شأنه . وقد كان . . .

أهمية الخطابة :

ولأهمية الخطابة كفن من فنون القول .. كانوا يختبرون صناع الكلام .. فراراً بهم من الملام ..

حتى خطيب الخطباء .. وشيخ الواعظين :

كان سيدنا على رضي الله عنه موقنًا بضرورة : أن يكون الخطيب داعيًا .. عالمًا .. عاملاً .. ولم يكن يستثنى من ذلك أحداً ..

وربما كانت له امتحاناته السريعة والتى يجيز بها الداعية .. أو لا يجيز .

مرّ يومًا على الحسن البصرى رضي الله عنه وهو يخطب فى الناس .. فقال له : ما عماد الدين ؟

قال : الورع .

قال : فما آفته ؟

قال : الطمع .

فقال له الإمام : تكلم إن شئت !

أهمية الإلقاء :

للكلمة ـ فى كل لغة ـ معناها .. كما تحدده معاجم اللغة ..

ولكن .. لهذه الكلمة ـ بالإضافة إلى معناها اللغوى ـ لها معان كثيرة .. يشار إليها بما يسمى « الأداء » أو « الإلقاء » .

بمعنى : أن الخطيب بطريقة أدائه .. وبالتصرف فى مخارج حروفها ..

ثم ما يصحب الأداء من إشارة باليد أو بالعين يمد المستمع بمعان ودلالات .. فوق معناها المحدد فى معاجم اللغة ..

وهذا ما يتكفل به فن الإلقاء .

وقد كان أحمد شوقى أمير الشعراء .. ومع ذلك .. فكان كلما صاغ القصيدة أعطاها لغيره ممن يجيد فن الإلقاء .. لينوب عنه فى إلقائها ..

وقد رووا أنه : عندما انتهى أكبر خطيب أمريكى من خطبته .. التفت إلى أمه وسألها : ما رأيك يا أمى ؟!

قالت : يا ولدى . لقد بدا لى أنك لم تغتنم خير الفرص التى أتيحت لك خلال الخطبة .

فقال لها : ماذا تقصدين ؟

قالت : عرضت لك فرص كثيرة لتكف عن الكلام وتقصر فلم تفعل !!

أهم وسائلها : القراءة :

اقرأ .. وتعلم . فإن كنت صغير قوم لا يُحتاج إليك .. فربما كنت كبير آخرين يحتاجون إليك .

وكان بعضهم يكتب .. وبالذات عند القبور .. ثم يقول :

ليس أوعظ من القبر .. ولا أمتع من الكتاب!!

وبالقراءة .. تكون أجهزة الاستقبال أقوى ..

إن فقر الثقافة أخطر من فقر الدم !! وإذن فلابد من القراءة .. والإلقاء ؛ لأنهما الأداة الأولى للخطابة .. ولا يمكن للخطيب أن يكون خطيبًا إلا إذا كان متمرسًا بأصول الخطابة وعناصرها .. واعيًا لما يقول : قادرًا على الإلقاء أو الأداء ..

أغراضها :

فى العصر الجاهلى .. كانت الخطابة .. تتوخى : الحماس ، وإثارة النعرات

القبلية .

ثم جاء الإسلام . . فكان من أهدافها . . الدعوة إلى الله

أ ـ بإثارة حماس الجيوش .

ب ـ ثم رسم سياسة الدولة .

جـ ـ والوعظ والإرشاد .

متأثرة فى كل ذلك بأسلوب القرآن الكريم . مع مراعاة « فن الإلقاء » وكما يقول العلماء : لابد للإلقاء من قراءة واعية مستوعبة . لأنها تبعث فى نفس الخطيب قدرات إبداعية . . ومنها : قدرته على التلوين فى أدائه . وفى اللين والشدة . . والتضخيم والترقيق . . وهكذا .

ويوضح د. أشرف محمد موسى فى كتابه « الخطابة وفن الإلقاء » .

أنه [يجب أن يكون ذهن الخطيب صافيًا . حتى يستفيد من القراءة . . فهناك من يقرأ . . لكنه عاجز عن استثمار ما يقرأ أو يتصرف فيه] .

وكم من شاعر لا يستطيع إلقاء شعره . .

وكم من أديب يعجز فلا يستطيع التعبير عما فى ضميره] .

أما القارئ الواعى . . فإنه : ينفعل بما يقرأ . . ولأنه منفعل . . فهو متأثر بما قرأ . . وعندئذ . . يصل إلى هدفه . . فإنه لا يؤثر إلا المتأثر .

ومن الناحية النفسية :

١ ـ لابد أن يكون مخلصًا . . يؤكد قوله عمله . . مع صدق فى اللهجة يعكس سلامة قلبه . . وبه يكون له تأثير فى قلوب مستمعيه .

٢ ـ أن يعرف قدر نفسه .

٣ ـ لا يسرف فى مدح ولا ذم ؛ لأن هذا الإسراف مظنة الكذب .

ولا يسرف أيضًا فى وعد ولا وعيد .. لأن ذلك مظنة العجز .

٤ ـ التودد إلى المستمعين : بالتواضع لهم ومدحهم [ومن مُدح مال إلى المادح] ثم برحمتهم والتماس الأعذار لهم .

٥ ـ ثم مساعدة المخطئ على استشعار فداحة الخطأ .. إن وظيفة الخطيب ليست مجرد أوامر يلقيها .. وإنما هى بالدرجة الأولى .. تهيئة ذهنه .. وقلبه بل وكيانه كله للاستجابة لما يسمع ولا يتم ذلك إلا بتزيين الحق .. والتنفير من الباطل .

وكان المرحوم الشيخ أحمد حسن الباقورى أديبًا ! ومع ذلك .. فقد كان ذكيا .. متوقد الذكاء ..

أذكر أننى كنت أمثل بين يدى لجنة امتحان الشفهى بمعهد القاهرة ـ فى الأربعينات ـ وكان الشيخ وكيلا للمعهد .. وكانت له هيبة ..

فلما رأيته .. هبته .. وتمنيت أن لو مضى إلى لجنة أخرى .. حتى لا أقع تحت طائلة أسئلته !!

ولكن الشيخ آثر لجنتى بالاشتراك معها فى امتحانى .. فكانت كل اللجان اثنين .. اثنين ..

أما لجنتى : فهى الوحيدة التى كان أعضاؤها ثلاثة : منهم الشيخ الباقورى .

ولقد كانت رغبتى ـ من قبل هذا ـ أن أستمع إلى الشيخ : خطيبًا أو متحدثا .. أما الآن ف أنا راغب عن هذا الأمل لأنه لن يكون حديثًا وإنما سوف يكون حدثًا !! ولقد وقع الذى توقعته ..

فلقد فوضت اللجنة الشيخ ليسألنى هو : فكان أن قال لى : اقرأ كتابك[1] .

فبدأت بقول المؤلف : « وقيل » كذا .. فبادر الشيخ قائلاً .. اقرأ .. إلى

---

(١) كنا نكلف بقراءة نص الكتاب المقرر .. ثم نُسأل فيما نقرأ .

أن ينتهى « نائب الفاعل » .. ثم توقف !

وكان السؤال فى نفسه مفاجأة .. فلم يقل لى : أين نائب الفاعل .. لأجيبه .. هو القضية بعد قوله « قيل » .

أما صيغته التى آثارها .. فقد فاجأتنى .. ولكن .. أنطقنى الله الذى أنطق كل شىء ..

فلما انتهيت إلى قول المؤلف : فإن قلت : ما معنى هذا .. قلت : كذا وكذا .

وكانت المفاجأة الثانية : أن الشيخ لم يتركنى ـ وقد أشرفت على الغرق ـ أن أسترد أنفاسى .. بل فاجأنى بالسؤال الثانى .. قبل أن أستشعر متعة التوفيق .. فقال : وأين مقول القول هنا ؟ فأجبته : مقول القول هو ما بعد : قلت .. وما بعد قلت .. وهما فى موضع نصب !!

وعندئذ قال الشيخ لعضوى اللجنة : أفرجوا عن الشيخ !

وهكذا حصلت على لقب « الشيخ » من لدن « الباقورى » أديب العلماء .. ويكفينى هذا !

الباقورى .. الخطيب :

ذاك هو الباقورى : المربى .. المعلم .

فماذا عن « الباقورى » الخطيب ؟!

خطب يومًا فينا فقال : خطب ﷺ .. فى المدينة المنورة ومن فوق منبره الشريف .. فقال :

وقلت فى نفسى : ما صلة « المدينة المنورة » و« المنبر الشريف » ما صلتهما بالقضية المعروضة ؟

وقلت لنفسى : فلنترك ذلك « المُخرج الفنان » والذى كان يختار أبطال روايته

من تسمعه . . فكأنك تراه . .

فأنت لا تسمع منه ألفاظا . . وإنما ترى بأذنك ما تسمعه . . على حد قول الشاعر :

وإذا لم أر الديار بعينـــى فلعلى أرى الديار بأذنى

وهكذا كان الشيخ الباقورى : إنه يرسم لك مسرح الخطبة النبوية بكل ملامحه فكأنك وبعين خيالك ـ ترى المدينة . . وترى المنبر العالى ومن فوقه سيد البشر يعلم الناس . .

ومرة أخرى : رحم الله شيخنا الباقورى والذى كان كما قيل بحق :

[إذا احتاج أن يتكلم فى موضوع . . لم يكن عليه إلا أن يفتح فمه . . ويحرك لسانه . .

فإذا المعانى فى ذهنه . . والألفاظ على شفتيه . . والسحر من حوله . . والأنظار متعلقة به . . والأسماع ملقاة إليه . . والقلوب مربوطة بحركات يديه] .

وقد أفاد غيرنا من هذا المسلك المعبر والمؤثر . . وإن لم يكونوا مسلمين .

فقد رأينا « شيراك » رئيس فرنسا يخطب . . وفى مناسبة قومية يخطب ـ لا فى قاعة البرلمان ـ وإنما من فوق « حاملة الطائرات الفرنسية ، وعلى أمواج البحر الأبيض المتوسط » .

يخطب فى هذا الجو الرهيب . . مذكراً بأمجاد فرنسا . . وأمجاد الحلفاء . . وانتصاراتهم . .

ورحم الله شيخنا الباقورى . . فقد كان كاتبًا . . وكان متحدثًا . .

فإذا كتب . . لا يكلُّ القلم . . وإذا خطب . . لا يملَّ اللسان . . وإذا أنت أمام خطيب . . يسفر لك عن مشاعره . . بلا إسراف . . وبلا إسفاف .

كان يدلف إلى قلب المستمع لا بآلة الجزار . . وإنما كما يدخل الرّسام

حجرته: بالفرشاة فقط . . والألوان . .

إن بعض الخطباء اليوم يصرخون . . مع أن الصراخ لن يحيي ميتًا . ولن تكون به خطيبًا أديبًا . . تمامًا . . كما أن قلما من الذهب . . لن يجعلك كاتبًا . .

وأمرك أيها الخطيب على ما قال الشاعر :

لا خيل عندك تهديها ولا مال   فليسعد النطق إن لم يُسعد الحال

درس من هناك :

وفد أحد « باباوات » روما إلى الأندلس لإتقانها وليقرأ العلوم بها . .

وكان من تقدير « الآخر لها » ما قاله « قسٌ » أسباني : يا للأسى !!

إن المسيحيين قد نسوا لغتهم . . ولن تجد فيهم اليوم واحدًا في كل ألف يكتب بها خطابًا إلى صديق .

أما اللغة العربية (فما أكثر الراغبين فيها) .

هذه اللغة التي وسعت كتاب الله لفظًا وغاية ، وما ضاقت عن آي به وعظات، وسجَّل آباؤنا بها علومهم المختلفة ، من تفسير ، وحديث ، وفقه ، وأصول ، ونحو ، وصرف ، وطب ، وعلوم ، وفلك ، وفلسفة وسوى ذلك .

هذه اللغة التي تكلمت بها الدنيا ، وكانت لغتها الأولى في عهد من العهود كما كانت اللغة العالمية الأولى لعديد من بلدان آسيا ، وكثير من أقطار إفريقية وأوروبا ، ومن أجل تعلمها جاء أحد باباوات روما إلى الأندلس لإتقانها ، وليقرأ العلوم العصرية بها ؛ ولأنها وحدها كانت لغة العلم والفلسفة والحضارة بجميع معانيها . كما رفع قسٌ أسباني عقيرته بالشكوى قائلاً : يا للأسى ! إن المسيحيين قد نسوا لغتهم ، ولن تجد فيهم اليوم واحدًا في كل ألف يكتب بها خطابًا إلى صديق ، أما لغة العرب فما أكثر الذين يحسنون التعبير بها على أحسن أسلوب .

ومرت الأيام ، فإذا نحن نتداعى لنتدارس الأسباب التي أودت بها ،

وأوصلتها إلى هذا الدرك من الانهيار والانحطاط ، ونتلمس السبل الكفيلة لاستعادة عزها ومجدها .

اللغة والسيادة :

بين اللغة وسيادة الأمة وتقدمها الحضارى خط بيانى ، يصعد بصعود السيادة والتحضر ، ويهبط بهبوطهما ، وأكبر مثال على ذلك الأمة العربية ، فيوم أن حكمت الدنيا ، وفتحت بلدان العالم ودخل الناس فى دين الله أفواجًا ، وكان لديها القوة فى الحكم ، والدين والفكر ، والحياة ، كان لابد للغتها من أن تكون قوية قوة تلك الحياة ، معبرة عنها ، وعن كل مظاهرها ، ولذلك سهل تعلُّمها وتعليمها ، وأصبحت لغة الحضارة العربية والإسلامية ، فكتب بها من لم ينحدر من أصل عربى وأسلست له القياد ، وعبرت عن كل ما يريد .

ويوم تصدعت وحدة الأمة العربية ، وانهار بُنيانها ، وفَلَّ عزمُها ، ضعُفت لغتُها وخبَا ضياؤها ، وأصابتها عللٌ كثيرة ، وحرَمتها الدقةَ العلمية ، وعوقت فى الأمة تسامى روحها وعقلها وقلبها .

وفتحنا أعيننا فى النصف الثانى من القرن العشرين فإذا نحن أمام واقع مخيف أقطارٌ عربيةٌ شتى ما تزال تحت نير الاستعمار ، وأقطار أخرى لما تصفح إلى نفسها بعد احتلال أوروبى مديد ، وأقطارٌ يفرض الحاكم فيها الجهلَ والأمية ، ويمنع افتتاح المدارس . وإدخال النور إلى بلاده . . فى الوقت ذاته كانت حضارة قادمة من الغرب تسابق الزمن وتطحن الإنسان وتجعل منه رقمًا أو بضاعة ، وتحمل معها مفاهيم ، وتبث فلسفات ما أنزل الله بها من سلطان ، يروِّج لها مروجون وسَدَنَة .

• • •

ثقافة الخطيب

ينبغى أن تتسع ثقافة الداعية . . ليستطيع الإحاطة بأسرار النفوس . . حتى إذا أفتى كان على بينة من أمره .

ومن أمثلة ذلك :

يرى الشافعي أن مدة بلوغ الفتاة هي : تسع سنوات .

فالمناطق الباردة . . غير المناطق الحارة .

فهو عالم بطبيعة البلاد . . وأحوال المناخ .

أما ابن حنبل : فقد جعل الغاية : أن يتم الذكر تعليمه وأن تتزوج البنت فكان عالما بأحوال الاجتماع . والمسالك العملية . وإلا . . فما قيمة شاب عمره عشرون . . بينما عمره العقلي خمس فقط ؟!!

نخلص من ذلك إلى تقرير ضرورة أن يكون الفقيه موسوعيًا .

قال الحصري في الجواهر : قيل لعالم : وضعت رأسي في حجر امرأتي فقال: ما أثقل رأسك ! فقال العالم : تطلق امرأتك ! فقال الرجل : ولم ! قال: لأن القصابين أجمعوا على أن رأس الكبش أثقل من رأس النعجة !

• • •

الإلمام بالثقافة الكونية

آمنت بالله العظيم وبقدرته على كل شيء ، وآمنت بالقوانين التي وضعها الله للأشياء ، فقد وضع في القمر جاذبية ترفع المياه إلى الشاطئ ، فيغرق بيتًا لفقير أو عشرات البيوت للأغنياء .

وأن تندفع الرياح وفقًا للقوانين فتكون عواصف وأعاصير تحطم الأشياء التي لا تقوى على مقاومتها . . وهذا طبيعي . .

وأن يكون الزلزال والبركان نتيجة للغازات المحتبسة في باطن الأرض فتندفع بقوة محاولة أن تخرج من قشرة ضعيفة فتكون الحمم وفقًا للقوانين التي أودعها الله للأشياء . . وإذا جفت الأرض واندفعت الرمال على الأرض الخضراء . وإذا زادت الأمطار في الحبشة كان الفيضان الذي يغرق الضفتين في مصر .

وإذا تطوحت كتلة من الأحجار تدور فى الفضاء حول الشمس أو حول المريخ أو زحل من عشرات ملايين السنين ثم انحرفت واصطدمت بالأرض فاحترق النبات والحيوان والإنسان . فليس ذلك إلا لقوانين محددة . . فهى تقترب من الأرض بواقع عدد من الكيلومترات كل مائة سنة . . فلا هى لعنة ولا هى استجابة لدعوة مظلوم وإنما هى تخضع لقوانين الحركة والجاذبية التى أودعها الله فى مادة الإنسان والحيوان والنبات والنجوم والكواكب حولنا .

وانتشار الجراد والفئران والميكروبات والانفلونزا والإيدز . . كلها نتائج لتفاعلات علمية . . طبية أو جغرافية . . فليس المزكوم ملعونًا ، وليست الفئران محكمة للعدل بين الناس . . وإنما كلها ظواهر طبيعية تهدد الإنسان والحيوان .

وحين غابت الشمس يوم مات أحد أبناء الرسول عليه الصلاة والسلام . قالوا من أجل ولده وأنكر واستنكر الرسول عليه الصلاة والسلام هذا التفسير الخرافى لقوانين الفلك . . إن الشمس لا تغيب من أجل غياب أى أحد !! عيب جدا ما قيل عن أن الجراد غضب من الله على الذين كفروا ـ فهل نحن جميعًا كافرون وهل الذين أفتوا بذلك أيضًا ؟!

إن العلم المحمود . . والمطلوب أن يتفقه فيه ليس هو العلم الشرعى فقط .

إن العلم معناه واسع . . يشمل كل أفرعه .

بدليل : أن علماءنا كتبوا فى كل مجال من مجالات المعرفة . . واقرأ قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨] .

• • •

المـزاج المعتـــدل

يقول الفنان : علق لوحتك فى غصن الحديقة .. وسوف يجيء العصفور سريعًا .

ولكن سرعته لا تدل على أن اللوحة جميلة .. كما وأن بُطأه لا يدل على قبحها .. وانتظر حتى يغنِّى .. إنه المزاج المعتدل !

• • •

من فقه السنة

فى خطبته ﷺ فى عرفات دروس :

١ ـ **القدوة الحسنة** : فأول دم وُضع : دم ابن عمه « ربيعة بن الحارث » وأول ربا أهدر : ربا عمه العباس .

٢ ـ واكتمال الدين يعنى : أن نستعد من الآن .. ليظل كاملاً .. فلا ينقص.

٣ ـ وكأنما كانت توجيهاته ﷺ تحذيراً للأمة من مخاطر المستقبل .. وما يحمله رحم الغد من مشكلات .

من تجارب الشيخ على الطنطاوى

يقولون : إن العلم قد يكون فى الأحداث .. أما التجربة : فلا تكون إلا فى الشيوخ ..

أ ـ [وأنا من عادتى إذا سمعت بمنكر أو رأيته ، أدخله ذهنى كما تدخل المعلومات فى المحساب (الكومبيوتر) فأنام عنه كما أنام كل ليلة كأن شيئًا لم يلج فكرى ، فإذا كان قبل موعد قيامى لصلاة الفجر ، استيقظت من نومى فوجدت الفكرة قد ملأت نفسى ، وغلبت على فكرى ، وتملكت أعصابى ، فأتحمس لها، وأعد فى ذهنى ما أكتبه أو أقوله عنها ، ويطير النوم من عينى فألبث متيقظًا أترقب طلوع النهار] .ا. هـ .

ب ـ ثم : التواضع .

[وكذلك يكون العظيم . لقد تعلمنا فى المدرسة ونحن صغار أن السنبلة الفارغة ترفع رأسها فى الحقل وإن الممتلئة بالقمح تخفضه ، فلا يتواضع إلا كبير ، ولا يتكبر إلا حقير . وأن من أحسّ أنَّ الكرسى أو المنصب ، أو المنزلة الاجتماعية ـ أقل منه ازداد به تواضعًا ، وأن من رأى نفسه أصغر من ذلك انتفخ به كبراً ، وتاه على الناس أشراً وبطراً .

إن الذى يكون ارتفاعه على أرجل الكرسى فقط إذا زال كرسى الوظيفة من تحته هوى وأخلد إلى الأرض ، أما من كان كالنسر ، ارتفاعه بجناحيه ، فلا يزال محلقًا فى الجواء] لا الأجواء .

هل عرفتم من هو الذى أتكلم عنه؟ إنه مجدد الإسلام فى هذا القرن ، إنه الشيخ حسن البنا .

أقام لنا حفلة شاى فى دار الإخوان التى اشتروها فى الحلمية الجديدة ، لولا الخجل لقلت إننى أنا المقصود بهذه الحفلة [إكرامًا منه لى ، لا استحقاقًا منى لها] بقيت محبًا له من بعيد صديقًا مخلصًا ، أدعو له بظهر الغيب ، ولكننى ـ على طريقتى ـ ما انتسبت إلى جماعة الإخوان ولا إلى غيرهم من الجماعات .

خطبت فى هذه الحفلة وخطب الشيخ الحامد وخطب الشيخ حسن ، وهو فى خطبه التى يلقيها كما تلقى الأحاديث ، بلا انفعال ظاهر ، ولا حماسة بادية ، من أبلغ من علا أعواد المنابر . تفعل خطبه فى السامعين الأفاعيل وهو لا ينفعل ، يبكيهم ويضحكهم ، ويقيمهم ويقعدهم ، وهو ساكن الجوارح ، هادئ الأصوات، يهز القلوب ولا يهتز] .

وأعرف فى الخطابة طريقتين : الطريقة التى نشأنا عليها أول عهدنا فى ارتقاء المنابر والتى كان عليها الشيخ مصطفى السباعى ـ رحمه الله ، وأنا أسن منه بكثير، والأستاذ عصام العطار والأستاذ الصواف الذى سأتكلم عنه الآن ، وطريق الشيخ

حسن البنا والدكتور عبد الرحمن الشهبندر ، وكل هؤلاء من الخطباء الأبيناء ، ومن سادة المنابر . وأنا قد جربت الطريقتين كنت أخطب مثل السباعى وأمثاله : تغلبنى الحماسة فيعلو صوتى ويحمر وجهى ، وتتلاحق الجمل والعبارات منى ، ثم انتقلت منها إلى مثل طريقة الشيخ حسن البنا والدكتور الشهبندر .

فى هذه الحفلة فى دار الإخوان ١٩٤٥م قام يخطب شاب آتاه الله جمالاً فى الوجه ، وبسطة فى الجسم ، وجهارة فى الصوت ، على رأسه عمامة ليست مثل عمائم المشايخ فى مصر ، بل هى على طربوش مقشش مكوى ، كعمائم السوريين والأتراك ، فألقى خطبة تنفجر حماسة ، وتتدفق إيمانًا ، تزدحم ألفاظها ازدحامًا ، فسألت عنه فوصفوه لى بإعجاب ، وعرفوه بفخر ، وإذا هو طالب عراقى موصلى .

وهكذا الخطيب :

[لا يحلو له نعيم حتى يشرك الناس معه فى نعيمه ، وكذلك الأديب يجود على الناس بأعز شىء عليه : بشعوره ، وعواطفه فيفتح لهم نفسه ، ويكشف لهم عن سرائره ، ولا يستأثر دونهم بشىء، فهم معه فى ألمه وسروره ، ويأسه وأمله، يتلو عليهم نبأ حبه وبغضه ، وحركاته وسكناته ، فيشاركونه حياته ، ثم يقولون عجبًا لهذا الثرثار الذى لا يفتأ يتحدث عن نفسه ، ولا ينفك مزهواً بها زهو الديك بريشه ، مالئًا الصحائف بأخبارها ، كأن الناس لا هم لهم إلا أن يسمعوا خبرها .

ما درى الظالمون أنهم يتهمون بالأثرة رجلاً هو أول المؤثرين] .

• • •

من أسرار اللغة

[فيها حروف تكتب ولا تقرأ ، وحروف تقرأ وهى غير مكتوبة ، وحروف تقرأ فى كلمة على صورة وتقرأ فى الكلمة الأخرى على صورة غيرها . وقواعدها

سماعية ليست قياسية ، واللفظ بها شنيع . وهم مع ذلك قد فرضوها على ربع العالم ؛ لأن أصحابها أهل اعتزاز بها ، وحرص عليها ، ونشاط فى تسهيل تعليمها ، والدعوة إليها ، حتى أننا نجعل لها فى مدارسنا خمس الساعات الأسبوعية أو سدسها ، وتوزع الأخماس الأربعة على الدروس الباقية كلها ، ثم لا يأخذ منها أبناؤنا ما يسهل عليهم الدراسة بها ، إذا ذهبوا يتمون تعليمهم فى البلاد الأخرى ، بل يمضون سنة من أعمارهم فى تعلمها من جديد .

ولغتنا العربية ، أكمل لغات الأرض بلا جدال ، صارت لغة كاملة قبل أن يوجد فى الدنيا كلها ، من يقول عن نفسه أنا إنجليزى ، وقبل أن تعرف الأرض هذا الجنس ، ولا أقول المبارك ولم يشهد التاريخ ولادتها ولا طفولتها ، ولم يعرفها إلا بالغة رشدها ، لأنها أكبر من التاريخ وأقدم منه مولدًا . ولانزال نجد فى هذه اللغة التى كانت مستعملة قبل ألفى سنة ، كلمات تفى بكل ما يحتاجه أستاذ الطب ، وأستاذ الحقوق ، وأستاذ العلوم فى الجامعة ، ولا أقول هذا خيالاً ولا فرضًا مستحيلاً ، بل أخبر عما صنعه أساتذة كلية الطب فى دمشق حين عربوا المصطلحات كلها فى السنين الستين الماضية .

ولكن قعد بهذه اللغة العربية النبيلة ، قعد بها أننا نحن أبناءها لا نعتز بها اعتزاز الإنجليز بلغتهم الشوهاء ، ولا نحرص عليها حرصهم على لغتهم ، ولا ننشط فى تعليمها ونشرها مثل نشاطهم ، بل إن فينا من يظن بأن من الظرف والحضارة أن يدع الكلمة العربية الفصحى ، وينطق بمرادفتها من الإنجليزية أو الفرنسية ، فلا تقول « خمار » ولا وشاح بل « إشارب » ولا نقول « معطف » بل نقول « مانطو » ولا نقول « تقانة » بل نقول « تكنولوجيا » ولا نقول « البرد » بل نقول « روب دو شامبر » وأمثال ذلك مئات] .

[فمن أين قبست هذا الأسلوب الذى أكتب به ؟ لم آت به ثمرة بلا شجرة ، فما تكون الثمار إلا من الأشجار ، ولا أوجدت شيئًا من غير شىء ، فما كان موجود من معدوم إلا أن قال له الله كن فيكون . . وما منا إلا من تأثر بغيره وأثر

فى غيره ، والدنيا أخذ وعطاء ، وما مثالنا إلا كتاجر فتح دكانه على طريق القوافل ، يوم كانت التجارة مقايضة ومبادلة ، ولم تكن وجدت نقود ، يمر به .

يوم كان يعيش فى دنيا الناس ، وكأن له دنيا وحده ، يرى فيها ما لا يرون ، ويسمع ما لا يسمعون ، يرى فى كل مشهد جمالاً ، وفى كل جمال حلمًا فاتنًا ، يستغرق فيه مسحورًا ، ويدرك من لذاذاته ومتعه ما لا يعرفه إلا من سمع حديث الجمال ووعاه بأذن قلبه ، وأمضى لياليه حالمًا ، سادرًا فى أحلامه ، فإذا صحا لم يجد ما يترجم به عن نفسه إلا لغة ضيقة قاصرة ، هى لغات البشر ، التى خلقت للتعبير عن حاجات الأرض ، لا لوصف أحلام السماء .

وماذا تصنع لغة لا تعرف للجمال كله على ما له من الصور التى لا تنتهى ، والمعانى التى لا تنفد إلا كلمة واحدة هى كلمة الجمال ؟ وأنى لها أن تترجم من عالم كله حياة وقوة وسحر ؟ وكيف تقنعه وللجمال فى عينيه صحائف يقرأ منها كل ساعة جديداً ؟ فلكل وجه جمال لا يقاس به غيره ولا يشبهه سواه ، ولكل عين جمال ، ولكل بسمة لفتة ، ولكل رنة صوت ، ولكل ومضة ثغر ، ولكل واد جبل ، ولكل سهل ونهر ، ولكل مقطوعة من الشعر ، وكل صورة فى المتحف وكل زهرة فى الروض ، وكل رائحة وكل نغمة ، فجمال ريا الياسمين ، وجمال أريج الورد ، وجمال عبق الزنبق ، وجمال رَوْح الفل ، وجمال البيات والرصد ، والحجاز والصبا ، والعود والقانون والناى والكمان ، وجمال القصة المؤثرة ، والحكمة المتخيرة ، وما شئت وما لم تشأ من أنواع الجمال فى الوجود ، كل أولئك ليس له فى هذه اللغات البشرية إلا لفظ واحد يدل عليه ويشير إليه . يا ما أفقر لغات البشر !

[وليست القوة أن تسوق على عدوك العسكر اللجب ، والمدافع والدبابات تضرب بها قلعته ، ولكن القوة أن تأتيه باسمًا « مصافحًا » فتحتال عليه حتى يفتح لك قلعته بيده فإذا أنت قد امتلكتها بلا حرب ولا ضرب] .

[وكلما مر به أحد أخذ منه سلعة ، وأعطاه بدلها سلعة أخرى ، ولبث على

ذلك أكثر من خمسين سنة ، فاجتمعت عنده مئات من الأشياء من كل صنف وكل لون فهل ترونه يعرف كل شيء منها ممن أخذه ، ومتى أخذه وما الذى أعطاه بدلاً منه ؟ هذا مثالى ومثال من كانت حاله كحالى : ما قرأت كتابًا ؟ ولا جالست عالمًا ولا أديبًا ، ولا سمعت خبرًا ، ولا رأيت سرورًا ولا كدرًا ، ولا نزلت بلدًا ، ولا قابلت أحدًا ، إلا ترك فى نفسى أثرًا .

فهل أقدر أن أحصى كم قرأت من الصحف ، وكم لقيت من الناس ، وكم رأيت من المسرات والأحزان ، وكم قصدت من الأقاليم والبلدان ؟

كان لكل ذلك أثر فى تفكيرى ، وفى مشاعرى ، وفى أسلوبى .

وإن لأسلوب كل كاتب سمات عامة نستدل عليه بها ، فبين سطورها وفى تضاعيف جملها وكلماتها ، وطريقة صفها ورصفها ، وطول جملها أو قصرها ، وسهولتها أو وعورتها ، وقربها من الحقيقة أو ضربها فى طرق المجاز ، فى كل ذلك إمضاؤه واسمه ، إن لم يكتبه فى ذيل المقالة صريحًا ، كتبه هنا تلميحًا وتلويحًا .

ومن الأساليب ما يكون كالفتاة الشابة تبدو للنساء بوجهها التى وهبه الله لها، تخرج به كما هو بحسن كحسن البداوة الذى وصفه المتنبى ، والتى تجمله أو تبدله بالأصباغ ، فتورد خديها المصفرين ، وتتخذ لها رموشًا ليست لها ، وتستبدل التكحل بالكحل الذى حرمت منه ، وتغطى شعرها المجعد بشعر مصنوع سبط .

وكم بين كاعب غضة الإهاب، لينة الأعطاف ، تتفجر شبابًا وصحة وجمالاً، وبين نصف :

وإن أتوك وقالوا إنها نصف فإن أحسن نصفيها الذى ذهبا

نصف غطت ما فعلت بها السنون ، بالأصباغ والدهون ، وطمست ما عراها من بوادر الدمار ، بما حوى دكان العطار .

وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر ؟

لا ، ولا يصلحه المزين ولا الحلاق ، هل تعدل بسيارتك الجديدة التى خرجت الآن من الوكالة ، سيارة أكل عليها الدهر وأكل منها ، وإن أدخلتها المرآب ونجدت فرشها وصبغت سطحها ؟

لذلك كان أفضل ما كتبت فى رأيى ما كنت أنطلق به على سجيتى ، وأساير طبعى ، فأكتب بلا تكلف ، ويقرأ الناس ذلك بلا تعب ، وأسوأ ما كتبته ما كنت أتصنع فيه ، وأحتشد له ، وأريد أن آتى بما أحسبه رائعًا ، فأتعب أنا بكتابته ، ويتعب القارئ بقراءته] .

[وكان من عادتى حين أصعد المنبر لأخطب خطبة الجمعة أن أعد الموضوع فى ذهنى لا أكتبه . لأنه ليس أقبح من خطيب يتلو خطبته من ورقة مكتوبة ، يضع عينيه فيها لا ينظر إلى الناس ، بل يكلمهم معرضًا عنهم ، وأقبح منه من يفعل ذلك فى الرائى (أى فى التليفزيون) .

وربما أعددت فى ذهنى موضوعين أتردد بينهما ، أيهما أختار منهما ، حتى أن المؤذن بين يدىّ يصل إلى « حى على الصلاة وحى على الفلاح » وأنا لا أزال مترددًا فى اختيار الموضوع ، ولكن الموضوعين فى ذهنى فإذا بدأت بأحدهما فتح الله علىّ ، وانطلقت أتكلم فيه] .

ولم أكن أنوى التعرض للحفلة لأننى تكلمت فيها وكتبت ، وحسبت أنى أعذرت بذلك إلى ربى ، ولكننى لما بلغت الدعاء فى آخر الخطبة ، خطرت على بالى الحفلة ، وما كان فيها ، فخفت من الله أن يرانى ساكتًا عن إنكارها ، وأن لا أكون شيطانًا أخرس ، وأنا لا أرضى لنفسى أن أكون شيطانًا ناطقًا بليغًا ، أفأرضى أن أكون شيطانًا وأخرس ؟

وأحسست أن شيئًا قد نبض فى قلبى ، فهزه مثل هزة الكهرباء ، وسرى فى أعصابى وعروقى ، وحين أحس بذلك أعلم أنى إن تكلمت كان كلامى لله ، وأن الله لا يخذلنى ، وقع لى ذلك عشرات من المرات ، ما تخلى الله عنى فى واحدة

منها .

أما حين أتكلم للدنيا وأفكر فى نفع أناله من كلامى ، أو ضرر أتحاشاه . . إن تكلمت فى هذه الحال لم يكن لكلامى أثر فى نفوس السامعين . .

لما بلغت الدعاء قلت كلامًا صدقوا أننى لا أحفظه لأننى لم أعده ، ولم أرصفه ، وإنما تكلم به إيمانى على لسانى .

قال السامعون لى بعد ذلك أننى قلت ما معناه : إن دمشق ظئر الإسلام ومثابة الأخلاق ، لا ترضى بما يخالف الإسلام ، ولا بما يذهب بمكارم الأخلاق كائنًا من كان قائله أو فاعله ، وكانت منزلته بين الناس ، وإن هذه الحفلة منكر وإنها حرام ، وإنها تنافى الإسلام ، وإن كل من حضرها ورضى بها آثم ، وإن الذى لا يغار على محارمه ديوث] .

• • •

شرف الخطيب

ويكفى الخطيب شرفًا أن تكون أداته هى : اللغة العربية .

والتى [تملك مخزونًا معنويًا . ولها وظيفة اجتماعية ، وتربوية ، ولها كذلك تأثير نفسى . .

فهى الركيزة الأولى فى الحوار والتفاهم . ثم التعارف المنتهى بالتعاون والتواصل الإنسانى] . وهذا هو شأن اللغة بعامة .

عندما يعرف « الخطيب » قدر نفسه :

سألوا الخطيب عن مسألة : فقال : لا أدرى .

فقالوا له ساخرين منكرين : ترتقى المنبر . . ثم تقول لا أدرى ؟!

فقال لهم : ارتقيت المنبر . . على قدر علمى . . ولو ارتقيته على قدر

جهلى . . لبلغت عنان السماء (١) !!

وقد انطلق الخطيب هنا من قاعدة تقول : إن سئلتم عما لا تعلمون . . فاهربوا أى : بقولكم الله أعلم !!

وهكذا فعلت الملائكة . . التى لم تستح أن تقول : ﴿ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ [البقرة: ٣٢] .

• • •

الكلمة وسرعة التأثر بها

فى أمريكا : نبه الآباء على الأبناء ألا يحدثوا « الكفار » ، ولا يسمعوا الموسيقى ؛ لأن الشيطان يدخل الأذن معها !!

والتزم الصغار . . فكانوا صامتين لا يحدثون الكفار !

وقد قرأت فى كتاب « تلبيس إبليس » نبأ ذلك الوالد الذى أمر ولده بأن يضع يده فى أذنه حتى لا يسمع باطلاً قد يترك فيه أثره !

وقد ذكروا : أن واحداً من عشاق شاعر كبير . . طلب منه قصيدة يستمتع بها . . فما كان جواب الشاعر الكبير إلا أن قال له : تكلم !

تكلم يا رجل . . افعل شيئًا . . حتى أتكلم !!

• • •

شرف الكلمة

يقولون : [إن لغة التخاطب بين أبناء البشر هى من أسمى صفات الإنسان بها يعبر عن انفعالاته السلوكية وبها يدرك أحداث الحياة المؤثرة حوله والكلمة هى مصدر الحضارات والرقى الذى توصل إليه الإنسان ونعمة الكلام والتعبير نعمة

---

(١) عنان السماء : بفتح العين : سحابها ، وعِنان الدابة ـ بكسرها : مقود الدابة .

كبرى من الله عز وجل لبنى البشر لا يعرف قدرها إلا من حرم منها ، والمثال الشاهد أمامنا الشخص الأبكم وما يعانيه من ضعف التعبير وصعوبة الكلام فيبقى عاجزاً محدود التأثير فيمن حوله ولا يستطيع أن يخوض فى بحور العلم أو يرد مناهل المعرفة فما افتقده من قدرة على الكلام يحول بينه وبين مواكبة التعليم الإنسانى رغم أن ملكات عقله وقدرته على الفكر لم تتأثر] ا. هـ .

• • •

تأثير الصورة

قد يتسرب حب الظلم إلى باطن الإنسان .. وهو لا يشعر .. أو الإعجاب بالظالمين .. ومن أجل ذلك وصى ﷺ بعدم دخول ديار الظالمين .

ومنها ديار ثمود .. فراراً بالمسلم من هذا الخطر الخفى !

وهكذا لا يكتفى « المدرس » بالجملة يلقيها .. وإنما يكتبها على السبورة .

لأنها عندئذ تضم إلى حاسة السمع حاسة البصر .. فإذا الفكرة أقوى ثباتًا .. والذاكرة أوعى ما تكون .

لقد رأى عينين صافيتين كأن قلب المعلم يطل منهما .. تعبر المعانى إليه بصوت صادر من القلب .. ليصل إلى القلب .

فإذا كانت اللغة هى « العربية » فإنها شرف يساوى وجود الإنسان .

يقول العقاد : [إن زوال اللغة العربية لا يُبقى للعربى أو المسلم قواماً يميزه فى سائر الأقوام .

ولا يعصمه أن يذوب فى غمار الأمم . فلا تبقى له باقية من بيان . ولا معرفة ولا إيمان] .

قال عبد الملك بن مروان : ما الناس إلى شىء من العلوم أحوج منهم إلى إقامة ألسنتهم التى بها يتحاورون الكلام ويتهادون الحكم ، ويستخرجون غوامض

العلم من مخابئها ، ويجمعوا ما تفرق منها . إن الكلام قاض يجمع بين الخصوم، وضياء يجلو الظلام ، وحاجة الناس إلى مواده كحاجتهم إلى مواد الأغذية .

طُلب من « يحيى حقى » أن يكتب لمجلة تعنى بشئون الفلاحين فقرر أن يكتب بالعامية .. لكنه عدل .. لماذا ؟

١ ـ امتحان لهم لفهم ما يسمعون .

٢ ـ ليشعروا بأنهم أناس من الناس ، فلماذا يخاطبهم بلغة خاصة بهم .. كأنهم غرباء ؟

٣ ـ هم يريدون التسامى إليه .. ولكنه يشعرهم بأنه يهبط إليهم ! وذلك يؤذيهم .

٤ ـ وقد لا يفهمون النصيحة . لكنهم يهتزون لجرس اللفظ .

المهم : لغة عربية .. بسيطة بلا تقعر . وأهم منه : فكرة تشغلهم .. واختار أن يكتب فيما يتصل بالأغانى التى تقلّد الفلاحين .

• • •

من نصائح المجربين

[إذا أردت أن تخطب .. فتحدث إلى الناس .. ولكن بعض الخطباء يتحدث إلى نفسه .. لا إلى الناس .

فهو إذن يبحث عن نفسه بين الناس .. والناس الجالسون أمامه يبحثون عن أنفسهم عنده . فهو لم يجد ما يبحث عنه .. وهم لا يجدون ما يبحثون عنه .. فكأنه لا يكلمهم .. وكأنهم لا يستمعون إليه] ا. هـ .

• • •

أسلوب الخطيب

تمهيد :

يتباكى بعض الكاتبين على هذا الهبوط الحاد في مستوى الكلمة « المغنّاة »؟!

ويزداد التباكي من هذه الكلمات المقحمة على قاموس الأغاني رأى فيها أهل الفن أنها لا تليق وطبيعة سحر الكلمة ، التي يجب توظيفها من أجل الوصول إلى المعنى بصورة فنية لائقة ثم يقول : [إن الكلمة المغنّاة حاليًا قد أصبحت مجرد «أثير هلامي» يمر على الآذان مرور الكلام ، دون أن يستثير المشاعر] .

ثم يقول : فبدون الكلمات لا يتم إدراك المعنى ، وبدون أن يكون للكلمات معنى فإن خاصية الإدراك لابد أن تتعطل . . ميكانيكية فطرية وهبها الله للإنسان استهدف منها سبحانه ضمان التواصل بين البشر ، فإذا ما تعارضت الكلمات مع الإدراك لفظها العقل فورًا ، تمامًا مثلما ترفض المعدة ما يتعارض مع طبيعتها سواء كان سمًا أو ربما مجرد عناصر غير متجانسة من الطعام لمجرد أنها عناصر غير متجانسة !

والخلل كل الخلل هنا ليس في أن تتجمع عناصر غير متجانسة فاقدة لقيمتها من الغذاء ، وإنما حينما تتقبل المعدة ذاتها هذا التجمع دون أن ترفضه . وفي حالتنا عندما يتقبل العقل أي كلام دون أن يدرك معانيه !! فإذا كان الحديث عن أسلوب الداعية . . فحدث ولا حرج :

وهنا نتساءل : أين أثر الكلمة في عالمنا ؟!

هل فقد الكلام معناه ؟! هل فسدت أجهزة الاستقبال وأجهزة الإرسال . . ؟!

لقد فسد القلب . . فقدنا معه كل شيء . .

ورحم الله الإمام عليا حين قال لرجل لم يتأثر بموعظته : إن بقلبك لشرًا . . أو بقلبي .

المشكلة والحل

وعندما نلتمس جذور هذا الاهتمام بالكلمة وأثرها .. فإننا واجدون في السنة المطهرة ما يشفي الغليل .. فقد كان ﷺ يخطب الجمعة .. وفجأة قدم رجل .. فقطع ﷺ حديثه قائلاً له : « اجلس .. فقد آذيت » ! .

لم يقل له : لقد آذيت إخوانك .. حتى لا يثيرهم عليه ..

ولكنه فقط ينبه الرجل إلى ما يريد التنبيه إليه .. نكالا لأمثاله .. وحتى لا يتكرر الموقف ..

• • •

من استفتاحاته ﷺ

بالثناء : مثل : سبحانك اللهم .. وبحمدك .

ثم بما يليه في الفضل وهو : الإخبار بولاء العبد له تعالى : مثل وجهت وجهي إليك .

ثم ثالثها وهو الدعاء وهو آخرها .. [لأنه طلب وسؤال] .

والأولى : المراوحة بينهما .. لا الاقتصار على أحدها لسببين :

الأول : أن مباشرتها جميعا سنة .. لأنه ﷺ كان ينوِّع .. والتنوع كمثله : سنة .

والثاني : قد يقتصر العبد على المفضول مثل (الدعاء) لأنه أنسب لحاله . حيث يباشره وهو راغب فيه .. مشتاق إليه .

يقول أحد الكاتبين :

[وبلاغـة الكلام من الأمور المطلوبة في مجال الرسالة والدعوة إلى الله . وها هو ذا موسى عليه السلام يطلب من ربه أن يشد أزره بأخيه هارون حين أرسله

ربه إلى فرعون وملئه فقال : ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ [القصص: ٣٤] . وتمنى على الله أن يطلق لسانه ، ويفتق بيانه ، ويحل عقدته ، ويفك حبسته فقال : ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ [طه: ٢٧، ٢٨] .

وهذا نبى الله داود يفيض الله عليه الحكمة ، ويمنحه سداد القول ، وفصل الخطاب ، ويمتن الله عليه بذلك فيقول سبحانه : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ [ص: ٢٠] .

أما أمة العرب التى بعث فيها المصطفى ﷺ فهى أمة الفصاحة والبلاغة والبيان، وكان لابد أن يكون بيان رسولهم أسمى من بيانهم ، ومنطقه أروع من منطقهم ، وخطابه أجل أثرا ، وأعظم قدراً ، وأعلى شأنًا ، من خطابهم ولذلك كان تأييد الله له بمعجزة القرآن ، ومعجزة البيان ولكى ندرك المدى الذى وصلت إليه معجزة البيان المحمدى فما علينا إلا أن نتأمل مليا أول خطبة وجهها رسول الله ﷺ إلى قومه وعشيرته يدعوهم إلى عبادة الله وحده ويعدهم ويحذرهم ، ويبشرهم وينذرهم ويقول : « **إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس ما كذبتكم ، ولو غررت الناس ما غررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون . ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءاً ، وإنها للجنة أبداً ، وأن النار أبداً ، وإنكم لأول من أنذر بين يدى عذاب شديد** » .

حكمة بالغة ، وقول فصل ، وإيجاز محكم ، ونفاذ إلى أعماق القلوب ، وامتداد إلى آفاق العقول ، وتلمس لأسرار النفس الإنسانية ، والوصول إليها من جميع أقطارها .

وتلمس معى مواطن التأثير ، وأسرار التمثيل ، وبراعة العرض ، وروعة الأداء ، لما يسمى بالحرية الخاصة التى تنتهك الحرمات ، وترتكب المنكرات ،

وتستهين بحدود الله فى قوله ﷺ : « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعًا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا .. » .

إن التمثيل والتصوير هنا قد استحالا قناعة تامة بضرورة الأخذ على أيدى العابثين بالحرمات ، الواقعين فى المنكرات ، وإلا فسيكون الهلاك عامًا لا محالة . وهل تراك فطنت إلى تحذيره ﷺ من المرأة صارخة الجمال ، باهرة الحسن ، وقد تجردت من عفافها وطهرها وأدبها ، وذلك حيث يقول : « إياكم وخضراء الدمن» ، قالوا : وما خضراء الدمن يا رسول الله ؟ قال : « المرأة الحسناء فى المنبت السوء » لها فتنة النبتة المزهرة النضرة الندية ، لكنها ضاربة بجذورها فى معاطن الإبل بكل ما تحمله من خبث وقذر وسوء .

أم هل تراك أدركت بحسك العميق وبصيرتك الواعية ما يعبر عنه قول المصطفى ﷺ : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » وما يشير إليه من فطنة المؤمن ونباهته وحرصه على السلامة ، وتجنبه لأسباب الشر ودواعيه ، وتحذيره من الغفلة وبلادة الحس ، ورداءة الإدراك ، وعتامة الوعى ، وبأية هزة وأريحية تتلقى قوله ﷺ لأنجشة العبد وهو يحدو الإبل ، وتمادى فى تطريبه ، فتزداد الإبل سرعة ، وتتمايل الهوادج بالنساء : « يا أنجشة .. رفقا بالقوارير » تمهل يا أنجشة ، وترفق بالنساء ، فإنهن لا يحتملن عناء هذه السرعة . وتمايل الهوادج بهن ، وهن الرقيقات الناعمات الضعيفات .. وذهب أنجشة ومضى عهده ، ومرت مئات السنين ، وما زال قول الرسول يتردد على سمع الزمان « رفقا بالقوارير » !! .

هكذا كانت هذه الإشراقات البيانية ، والمعانى الإبداعية ، والتعبيرات الإيحائية ، واللمسات التأثيرية ، والدلالات التمثيلية ، والطاقات التصويرية ، والإيقاعات الصوتية هى المثل الأعلى فى بلاغة الأسلوب ، وسحر البيان ، وروعة العرض والأداء . .

يقول الأستاذ أحمد رجب :

[لماذا نقرأ لكاتب فنحس أننا نشرب كوبًا فارغًا من الماء ؟ ولماذا نقرأ لكاتب ثان فنحس أننا نشرب كأسًا من الخمر الرديئة التى تذهب بالعقل ؟ ولماذا نقرأ لكاتب ثالث فنحس أننا نزداد غنى وثراء ونمر بتجربة حقيقية من تجارب الحياة ؟

إن الفرق فى تفاوت إحساسنا بالكتابة والكتاب يرجع لقدرة هؤلاء الكتاب على احتمال الصدق والتعبير عنه ، ودور الكاتب الرئيسى أن يكون ضميراً لعصره ومهمته أن يسهم فى تبديد الظلام بإشعال شمعة ، وعلى الكاتب أن يكون شاهداً صادقًا ، وهناك شهود صادقون وشهود زور يقفون أمام المحاكم ، وأى كاتب يبيع فكره يصير أسوأ ممن تبيع جسدها فى سوق الغواية .

ومهمة الكاتب أن يكون صادقًا ، ويقف فى معسكر الحقيقة حتى لو كانت القنابل تسقط على هذا المعسكر بانتظام ، وكثيرا ما يكون الأمن والثراء والدعة جنرالات فى جيوش الكذب ، وكثيراً ما يكون الخوف والفقر والشقاء ضرائب مفروضة على الصدق ، فليحذر الكاتب أن ينضم إلى الكذب لأنه يتحطم ككاتب ويسقط فلا يقرأه أحد .

والكلمة الصادقة هى مهنة الأنبياء ، والكاتب الصادق هو واحد من أتباع الأنبياء ، والذى يكذب فى هذا المجال يهوى من حالق وإن تصور بالوهم أن يصعد إلى أعلى .

وفى مهنة الكتابة ـ كأى مهنة أخرى ـ يوجد الذهب كما توجد الشوائب ، ويلمع الصدق كما يتزين الكذب .

وفى الكتاب من تبلغ به درجة النفاق أن يمدح شخصًا أو نظامًا فينصرف الناس عن هذا الشخص أو النظام ، لعلمهم أن الكاتب مأجور أو كاذب .

وفى الكتاب من يخلع ملابسه ويرتدى بدلة الرقص إذا أراد أن يكتب ، ثم يمسك بالصاجات ويزف عروسًا صلعاء متصوراً أن أجر الراقصة أكبر من أجر

الكاتب ، وربما كان هذا صحيحًا من الناحية المادية ، ولكن الكتاب الراقصين لا يحظون باحترام أحد مهما كانوا أثرياء .

وفى الكتاب من يصلى خلف « على » ويأكل على مائدة « معاوية » متصوراً أنه ينال ثواب الصلاة ولذة الطعام معا ، وإن كانت الحقيقة أنه يضيع نفسه فى الحالتين .

ومهمة الكاتب ألا يفقد الأمل وإن اشتدت العاصفة ، وأن يسبح ضد التيار إذا كان التيار يسبح ضد الحقيقة ، وأن يقول كلمة الحق وإن كان جزاؤها الويل ، وأن يشهد بالصدق على عصره ، وأن يكون ضميراً حيا لهذا العصر .

هذا دور الكاتب ، وهذه مهمته ، أما أصحاب الأقلام الذين يحملون لافتات للإيجار فهؤلاء ليسوا كتابًا وإنما هم شقق مفروشة] .

من تجاربى :

ذهب الفتى الطموح إلى الشاعر الكبير قائلاً له : أريد أن أكون شاعراً ؟ فقال له : خذ هذه الألف بيت واحفظها . فلما جاءه يخبره أن حفظها . قال له الشاعر: حاول أن تنساها ؟!

وحاولت أن أفهم الموقف على ضوء تجاربى .. فانكشف لى ما يلى :

أن مجرد القراءة والحفظ لا يكفى ـ على أهميته ـ والمطلوب هنا : تمثَّل ما قرأت وما حفظت أن يترسب فى أعماقك بعد تمثله وجريانه فى عروقك دمًا .. وفى قلبك خفقانًا .. تمامًا .. كما يقوم الجسم بدوره ليتحول الطعام إلى طاقة .. وإلا .. خرج كما هو دون فائدة ما .. وقد كنت أسمع المرحوم الشيخ محمد الغزالى فأتأثر به .. مع خلو كلامه من الجُمل البراقة .. بينما غيره يكثر من استعمال الجمل المنتقاة .. ثم لا يكون له تأثير ..

والسر هو : أن غير الشيخ يحفظ الجمل البراقة .. فإذا هى تخرج .. وقد لزقت كل جملة بأختها .. بينما الشيخ يخطب بعدما هضم ما قرأ وما حفظ

فصار فى قلبه دمًا .. وخفقان .. فإذا تحدث كان يصدر عن قلبه العامر بالطاقة.. ومن ثم يؤثر .. لأنه متأثر !! ومتأثر بما حفظ .. ثم بتحوله فى قلبه إلى طاقة معبرة مؤثرة !

(وما المجازات والاستعارات والكنايات ، ونحوها من أساليب البلاغة إلا أسلوب طبيعى لا مذهب عنه للنفس الفنية إذ هى بطبيعتها تريد دائمًا ما هو أعظم، وما هو أجمل ، وما هو أدق ، وربما ظهر ذلك لغير هذه النفوس تكلفًا وتعسفًا ووضعًا للأشياء فى غير مواضعها ، ويخرج من هذا أنه عمل فارغ ، وإساءة فى التأدية ، وتحمل لا عبرة به ، ولكن فنية النفس الشاعرة تأبى إلا زيادة معانيها ، فتصنع ألفاظها صناعة توليها من القوة ما ينفذ إلى النفس ويضاعف إحساسها ، فمن ثم لا تكون الزيادة فى صور الكلام وتقليب ألفاظه وتزداد معانيه إلا تهيئة لهذه الزيادة فى شعور النفس) [١].

فمن الناس (من يعجبه حسن اللفظ ، ومنهم من يعجبه الإشارة ، ومنهم من ينقاد ببيت من الشعر ، وأحوج الناس إلى البلاغة : الواعظ ، ليجمع مطالبهم ، لكنه ينبغى أن يفطر فى اللازم الواجب ، وأن يعطيهم من المباح فى اللفظ قدر الملح فى الطعام ، ثم يجتذبهم إلى العزائم ، ويعرفهم طريق الحق) [٢].

كان إعجاز القرآن « أسلوبًا » إشارة إلى أن الأدب يجب أن يدعو إلى الله.

• • •

لماذا الإيجاز؟

الكلام الطويل تمجّه الآذان ، وتملّه القلوب .. فليكن موجزًا :

لا تقل كل ما يخطر ببالك . وإذا كنت تقدِّر لرجلك قبل الخطو موضعها .. فقدر لكلمتك قبل النطق .. موقعها !

---

(١) وحى القلم (٣/ ٢١٣) .

(٢) صيد الخاطر لابن الجوزى (١٠٠) طبعة محمد الغزالى .

خطورة الكلمة

ولقد كان هناك من حملة الأقلام .. من استشعر خطورة الكلمة .. منطلقًا من قاعدة تقول : [صرير الأقلام اليوم .. هو نفير الإصلاح غدًا] .

شتم رجل « حكيمًا » فقال له الحكيم : إنما هى صحيفة أعمالك .. فاكتب فيها ما شئت :

لسانك .. قلمك . وريقك .. مدادك ! ألا إن زلّة الرجل : عظم يُجبر . أما زلة اللسان : فهى لا تبقى ولا تذر .

ومن أجل ذلك كانت هناك حساسية شديدة مع الكلمة التى تحمل عبقرية البناء .. والهدم بنفس القوة !

كان العالم : إذا حَدَّث صَدَق وإذا حُدِّث .. صَدَّق .

ذلك بأن الله سبحانه وتعالى : لا ينال خيره إلا برحمته . ولا تنال رحمته إلا بطاعته .. ومن طاعته .. عفّة اللسان .

وأين من هذا المستوى العالى ذلك الرجل الذى خرج من الحرم نظيفًا .. ثم يسب أخاه بظهر الغيب .. لقد طهّر جسمه .. ولكنه لم يطهر لسانه !

قالوا : والكلمات مثل بنى آدم .. تولد وتموت .. وإذا ماتت عادت من حيث أتت .. إلى القواميس .. أو مقابر الكلمات .. « بلاش » مقابر .. إلى ثلاجات اللغة .

وهذه مجموعة من الكلمات العامية التى هى فى الأصل عربية فصيحة .

نقول : شبرق .. وشبرق نفسه .. وشبرق عينيه .. والشبرقة هى قطعة صغيرة من أى شىء .

ويقول الميكانيكية إن السيارة شحطت .. أو بتشحط .. والكلمة فصيحة .. فلان يتشحط يعنى يضطرب أثناء النوم .

ونقول رجل أو سيدة هفك أو هيفك أو هفا . . والهفك أى المغفل أو التافه.

ونقول : هكع . . أو مهكعة . . أى بطىء الحركة أو عاجز عن الحركة . .

نقول فلان هيس (هيص) أو أنه هاس . . يعنى أنه يمشى على كيفه . . على هواه . .

ونقول إن الخادمة تمرث الملابس . . وهى من كلمة (تمرز) أو (يمرن) ومعناه ينقع الملابس فى الماء . . ونقول (يمرط) يمرط شعر رأسه أى يتساقط .

وفلان (يتمرع) علينا . . والأصل هو (أمرعت) الأرض أى ظهرت فيها الأعشاب واخضرت ودبت فيها الحياة .

ونقول يمخخ : أى يستخرج المخ من العظام . أى يفكر حتى يستخرج المعنى . . أى يفكر . .

ونقول : مايص . . ومايصة . والأصل هو كلمة ماسى يميس - أى يميل يتمايل ويتثنى ويتبختر . وهى مائسة ومياسة وميسون أيضًا . . وكلمة (مومس) من هذه الكلمة بعد تبديل فى مواقع الحروف . .

ونقول : وبش . . وأوباش . . والوبش هو البياض الموجود فى الأظافر . . ونقول : أوباش . . أشياء متفرقة .

وفى حديث للرسول عليه الصلاة والسلام : « **إن قريش قد أوبشت لقتالنا** » . . أى جمعت أناسا أشكالاً وألوانًا .

ونقول : لابد أن (يصطفلوا) مع بعض . . وإذا لم نفلح فى إقناع أحد . . أن نقول : أنتم أحرار . . اصطفلوا . . أى اتفقوا . والأصل هو استفروا . . من الفعل : سفر فهو سافر وسفير . . واستفروا أى اختار لهم سفيراً يصلح بينهم وفى حديث لعلى بن أبى طالب وعثمان رضي الله عنهما : « **إن القوم قد استفرونى إليك** » - أى جعلونى سفيراً لأصلح بينكم .

قال المتنبى فى « ابن العميد » :

عـــربىّ لسانـــه فلسفـــىّ رأيـه .. فارسية أعيـاده

خلق الله أفصح الناس طرا فى بـلاد : أعرابه أكـراده

وقال « البورينى » العربى : إنه عشق « الفارسية » حتى قال :

تعلمت لفظ الأعجمـى وإننـــى من العرب الغربـاء لا أتكتـم

وما كان قصدى غير صون حديثكم إذا صرت من شوقى به أترنـم

فإن كنـت بين المعجمين فمعــرب وإن كنت بين المعربيـن فمعجم

فاغدوا بأشواقى إليكـم مترجمـًا وسرّكمو فى خاطرى ليس يعلم

● ● ●

في مجال التطبيق

نضرب هنا بعض الأمثلة العملية للخطبة كما ينبغي أن تكون :

قال ﷺ : « إذا صلى أحدكم فإنه يناجي ربه ، فلا يبصق تجاه القبلة ، ولا عن يمينه ، وإنما عن يساره ، وتحت قدمه » .

مقدمة :

١ ـ يأخذ الإسلام أتباعه بمجموعة من المبادئ الاجتماعية . . التي يتحقق بها الترابط بين أفراد المجتمع حتى يكون كالبنيان المرصوص . . يشد بعضه بعضا ، ومن هذه المبادئ مبدأ . . النظافة . .

٢ ـ وفي التمكين لهذه القيمة العظيمة ينهى الحديث الشريف عن « البصاق » لأنه شكلاً ، وموضوعًا مرفوض .

أما شكلا : فهو حركة منفرة .

وأما موضوعًا : فهو من أسباب انتقال العدوى .

٣ ـ وإذا حدث ذلك في دنيا الناس . . فلأن يكون مع الله سبحانه أولى .

٤ ـ لماذا ؟

أ ـ لأنك في بيته . .

ب ـ ثم إنك تناجيه . . فأنت قريب منه عز وجل أو هو تعالى قريب منك .

٥ ـ وإذا قيل : رحم الله والدا أعان ولده على بره . . فإنا نقول هنا : ورحم الله داعية أعان المدعو على الطاعة . .

فهو ﷺ يعين المخاطب على هذا بإشعاره حجم الخطأ . على نحو يشجع على الطاعة بقدر ما يعينه على التخلص من هذه العادة الضارة . . والتي من شأن الذوق السليم أن ينفر منها . .

والحديث من ناحية أخرى قاعدة من قواعد الصحة التى تقوى بها الأجسام.. لتتمكن من تحقيق المهام العظام .

شن الواعظ هجوما كاسحا على المنافقين ، وقلت له : من الأسهل والأنفع أن تبدأ بآيات سورة البقرة .

ذلك بأن فى المستمعين من اكتوى بنارهم .. ومن ثم فأنت بالهجوم لا تضيف إليه جديداً .. وإنما الجديد أن تنصح المخاطب .. بمقابلتهم بالمتقين .. الذى يظهرون فى صورة جميلة .. تقابل صورة المنافقين القبيحة .. وإذا لم تتسع الدنيا للنيل منهم فالجزاء هناك فى الآخرة .. ثم ..

إن المؤمن واضح .. وله لسان واحد .. ووجه واحد .. فهو مع الوضوح مطمئن ..

أما المنافق فهو بتقلبه معذب فى الدنيا بهذا التمزق .. قبل أن يذيقه الله وبال أمره فى الآخرة .. ثم هو : باهت .. لا لون له .. لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .. وإذا حقق المنافق نجاحًا فى الدنيا .. فهو النجاح الموقوت والمتبوع بشقوة الأبد ..

والتحذير من النفاق نهاية المطاف : لأنه مرض خطير قد لا يمسه صاحبه .. ومن أجل ذلك كان عمر رضي الله عنه يسأل « حذيفة » رضي الله عنه عما إذا كان منهم ؟!!

عمر الفاروق رضي الله عنه .. على جلالة قدره .. يخاف أن يكون منهم .. فكيف بنا نحن الآن ؟!

نقل الخطيب قول القائل : إن للجماد حسا وشعوراً ..

ثم استشهد بقوله عز وجل عن الأرض : ﴿ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ [الحج:٥].

والأقرب إلى الصواب أن يستشهد بما يلى :

١ ـ ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت:١١].

٢ ـ قوله ﷺ : « أحد جبل يحبنا ونحبه ...» .

نحبه : نعم . . ولكن العجيب أنه يحبنا !!

ثم إن الحصى : يسبح . . بل كل شىء يسبح . .

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤] .

﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ [سبأ: ١٠] .

وحنين الجذع إليه ﷺ .

كان حديث مقدمة « البرنامج » عن « اللؤلؤ » : والذى قسّمته إلى :

١ ـ لؤلؤ حرّ : يكون داخل المحارة غير ملتصق بها . . فهو حر فى حركته داخلها .

٢ ـ ثم ملتصق بالجدار يحتاج إخراجه إلى الحيلة .

٣ ـ ثم مجهول : مغلف بقشرة . . وعند نزع القشرة إما أن يكون لؤلؤا خالصًا . . وإما أن يكون رملاً .

ومهما يكن من أمر . . فلابد من كسر المحارة . . لاستخراج ما فى جوفها .

وهكذا الناس : فيهم الحر ، وفيهم العبد ، وفيهم المنافق .

ولابد فى التعامل معهم من « البلاء » للكشف فى النهاية : أنهم كهذا اللؤلؤ أنواع : أفضلهم الحر . . الواضح . . الصريح .

وأخطرهم : منافق عليم اللسان . . ولا ندرى ما وراء هذا اللسان .

إن الداعية فى حاجة إلى الأسلوب الذى يشجع الناس على متابعته والعمل بما يقول.

إنه صاحب [رسالة الحق الخالص] وبين الحق وفطرة الإنسان نسب فكلاهما من روح الله فإذا أثرت حماسة قلب المرء إلى حقائق هذه الرسالة رأيت فطرته

تسرع إليها إسراع الأليف إلى أليفه فى غير إنكار ولا تردد وتقبل عليها فى معرفة وثقة ويقين بل فى لذة وشوق وحنين . كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٣] ذلك بأن الحق مسطور بقلم الله فى كل فطرة والفطرة السافرة التى لارين عليها إذا سمعت الحق يتلى فى أى وجه أحست أنه صدى أحاديثها وصورة ما هو مكتوب فى أطوائها : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٩] .

فإذا رأيت نفسك يا أخى راكد العواطف منطفئ الحماسة لرسالتك أو إذا وجدت من نفسك أنك تقبل علينا لتكون خطيبًا يعجب الناس ببلاغتك فاعلم أنك على الحالين فى حاجة إلى فهم جديد لدينك هو الفهم العاطفى والتصديق القلبى هو الإيمان القوى الذى يشغل ذلك ذهنك بدعوتك فى كل لحظة .

فتذكرها فى نومك ويقظتك وعلى طعامك وبين أهلك وفى حلك وسفرك وفى كل مجالسك إذا قصدت إنسانًا فللدعوة وإذا سالمته أو عاديته فلها وإذا فرحت أو حزنت فمن أجلها وبالجملة تكون هى المسألة الأولى الحاضرة لديك فى كل وقت من أوقات حياتك . .

هى صلب الحياة ولبها وصميمها وأمور عيشك على هامشها وأطرافها ولا تظن هذا كثيراً عليك فأنت داعية ولست مدعوا وشتان بين حال هذا وذاك .

أقبل على دعوتك يا أخى هذا الإقبال واصطنع لها هذا الاهتمام وتكلف فى صدق أن تكون لها واغمر نفسك فى محيطها وأكثر الاتصال بمرشدها وقادتها وأنصارها فإنك لا تلبث أن تكون كذلك إن شاء الله كالسيف إذا شحذه صاحبه زايله صدؤه وصار مرهفًا بتاراً [١] .

---

[١] تذكرة الدعاة البهى الخولى ص ٣٠.

أما بعد : فإن مهمة الخطيب شاقة .. شاقة .. بمعنى أنه مطلوب منه أن يبصر الناس بأصول الدين ..

وفاقد الشيء لا يعطيه : فإذا كان هو لا يعرف أصول الدين ولا التوحيد الصحيح إذا هو ضال .. يدعو إلى الضلال ..

المطلوب من الخطيب أن يعرف الأصول .. الأساسية في الدين حتى إذا ما جاءت دعوة التجديد عرف كيف يبتعد عن المكرور من الكلام ..

ويأتي الأشياء توافق العصر والمصر الذي يتحدث فيه .. مع موافقة الثوابت الرئيسية للإسلام فلقد زلزلت الأرض زلزالها ..

ورجت رجا فمن الذي رجها ؟!

هل تستطيع قوة في الأرض بل في الدنيا كلها أن تحركها ؟

كلا إذا الله هو حقيقة الحقائق ، وهو المعبود بحق ، وهو غاية المطلوب سبحانه وتعالى ..

فهل تعرفوه أيها المسلمون ؟ وهل لا تخافون إلا منه ولا تخشون إلا هو ؟

• • •

الخطيب المثالى : كأنك تراه .. وتسمعه

مواقف الرجال مدرسة للأجيال :

يقولون : إن تاريخ الرجال مدرسة للأجيال . وللناس فى قراءة التاريخ مذاهب : فمنهم من يدرس التاريخ كحوادث : يسردها سرداً .. ومنهم الذين يعرضون سيرة الرموز من سلفنا .. استنباطاً للعبرة .. التى نحدد بها ما يلى من حياتنا .

وخذ مثالاً على ذلك : روى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبى ﷺ : **« إن أول من يعطى كتابه بيمينه أبو سلمة بن عبد الأسد ، وأول من يعطى كتابه بشماله : أخوه سلمان بن عبد الأسد »** (١) .

وإلى هنا انتهى الخبر . كحادث فذ يروى ..

أما فقه ذلك الخبر فهو : أن البيئة وإن كان لها تأثير ما .. فإن الرجل هو الذى يرفض أن يستجيب لها لتشكله كما تشاء .. وإنما يمكن أن يفرض عليها إرادته ولا يكون رد فعل لما راج فيها من عادات وتقاليد .

وهذان أخوان : أبو سلمة .. وأخوه سليمان .. اختصموا فى ربهم .

لقد عاشا معا فى بيت وثنى واحد .. وفى بيئة وثنية واحدة .. ولكن سلمان .. ظل كافراً .. أما أخوه أبو سلمة .. فقد تمرد على التقاليد البالية .. حتى صار أول من يأخذ كتابه بيمينه .

وبهذا المنهج نحاول اليوم سبر سيرة عمر رضي الله عنه فى محاولات للكشف عن جوانب العظمة فى هذه السيرة العطرة .. نقدمها هدية لبعض شبابنا ..

شبابنا المتحمسين المنبهرين بهذه السيرة العظيمة انبهاراً أنساهم أن يخرجوا من جاذبيته ليسألوا أنفسهم ماذا علينا أن نفعل اليوم لنكون مثل هذه القدوة الحسنة .

---

(١) راجع الإصابة (٩٥) .

نفعل مثلما فعلوا.. ثم لا تكون كهذا الذى قال :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت .. وإن ترشد غزية أرشد

وإنما لتوطين النفس على عمل الخير :

نبنى .. كما كانت أوائلنا تبنى .. ونفعل مثلما فعلوا ! وفوق ما فعلوا!

وخذ من سيرة الفاروق هذا الموقف : الواعظ .. يعظ نفسه !!

يكفى أن يخلو الواعظ بنفسه لينهاها عن غيها ..

ولكن « عمر » رضي الله عنه يأبى إلا أن يكون ذلك علانية .. ليلقن الرعية درسًا بليغًا فى إصلاح النفس .

صعد المنبر يومًا .. ثم حمد الله . وأثنى عليه ثم خطب فقال : أيها الناس.. إنى داع فأمّنوا ..

اللهم إنى غليظ .. فلينى لأهل طاعتك .. بموافقة الحق .. ابتغاء وجهك والدار الآخرة .

وارزقنى الشهادة . والغلظة على أعدائك .. وأهل الدعارة والنفاق .. من غير ظلم منى لهم .. ولا اعتداء عليهم .

اللهم ارزقنى خفض الجناح .. ولين الجانب للمؤمنين.

اللهم إنى شحيح .. فسخّنى فى نوائب المعروف . قصدًا .. من غير سرف ولا تبذير . ولا رياء ولا سمعة واجعلنى أبتغى وجهك والدار الآخرة .

يطالعك من الموقف منظومة فريدة من القيم :

أ ـ قيمة الاعتراف بالعيب .. سبيلا إلى التخلص منه .. وليس هو « جلد الذات » على ما اقترفت من لذاذات .

ب ـ الإخلاص فى العمل .

جـ ـ الإنصاف : وهى قيم إيجابية تعنى : الولاء للحق .. وإطراح حظوظ النفس على ما قيل : إنارة العقل مكسوف بطوع هوى .. وعقل عاصى الهوى يزداد تنويراً .

أما الاعتراف بالعيب .. فواضح : فهو يعترف .. وعلى الملأ .. بأنه شديد على الرعية .. غليظ فى معاملتهم .. يعترف بهذا .. طالبًا اللين .. ابتغاء وجه الله والدار الآخرة .. وهذا هو الإخلاص الذى كان من صعوبته أنه يطلب معونة ربه سبحانه وتعالى فى تحصيله .. وذلك قوله : (واجعلنى أبتغى وجهك والدار الآخرة) .

ثم هو ينصف الرعية من نفسه حتى الظالمين منهم.. وذلك قوله : (وارزقنى الغلظة على أعدائك من غير ظلم منى لهم ولا اعتداء عليهم ..) .

وهو ينطلق فى عدله .. بل فى إنصافه من القاعدة التى تقول :

من استعمل الظلم .. استعمل الله معه العدل . ومن استعمل العدل .. استعمل الله معه الفضل .

إنه الإنصاف الذى يعنى إقامة محكمة داخل النفس تحاكم أولا بأول .. ولقد كان « كسرى » يقيم عن يمينه رجلا ..وعن شماله رجلا ليذكراه كلما أخطأ بالكف عن الظلم لأنه مخلوق لا خالق ..

ولكن الفاروق رضي الله عنه .. يقيم الرقيب فى كيانه هو .. لا ليكون معه فقط فى مجلس الحكم .. ولكن يسير معه أنى سار ؟!

فى مجال التطبيق : وهكذا أعلنها الفاروق مدوية من فوق المنبر ..

ولكن .. ماذا عن الواقع : هل صارت هذه القيم واقعا عمليا ؟ أجل : لقد كان على ما قيل : ولست بذى وجهين فيمن عرفته ـ ولا البخل فاعلم من سمائى ولا أرضى !

حكى « إبراهيم النخعى » : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه نهى الرجال أن يطوفوا مع النساء . ولكنه رأى رجلا يطوف مع النساء .. فضربه بالدرة ..

وعندئذ قال الرجل : والله .. إن كنت أحسنتُ .. لقد ظلمتنى وإن كنت أسأت .. فما علمتنى !!

فقال له عمر رضي الله عنه : أما شهدت عزمتى ؟؟ يعنى : أما علمت بنهيى عن ذلك ؟

فقال الرجل : ما شهدتُ لك عزمة ..

وعندئذ .. ألقى إليه عمر بالدرّة وقال له : اقتصّ ..

فقال الرجل : لا أقتص اليوم .

فقال له الفاروق : إذن .. فاعف عنى .. فقال الرجل : لا أعفو !!

ثم افترقا على ذلك .

ثم لقى الرجل عمر فى الغد .. وقد تغير لون عمر .. فقال الرجل له : كأنى أرى ما كان منى قد أسرع فيك .. فقال عمر : أجل !

قال الرجل : فاشهد أنى قد عفوت عنك !!

وهكذا ترى قيمة الإنصاف واقعا ملموسا .. حين سمحت له نفسه وهو الخليفة المطاع .. والذى كان يخاف منه الشيطان .. سمحت له أن يعرض الدرة على المظلوم ليقتص منه .. وهو الرجل الأول فى الدولة .

هذه القيمة التى كانت خيطا فى نسيج حياته كلها .

وتأمل قوله لمن اقترح عليه استخلاف ولده .. عبد الله .. قال : كيف أستخلف رجلا لم يعرف أن يطلق امرأته ؟!!

ويتعبيرنا العصرى .. كأنما يقول : كيف أولّى .. من رسب فى مادة «الفقه»

أو مادة الشريعة : كيف يؤتمن على حياة الناس من فشل فى إدارة أسرته .. ولم يكن على علم بأحكام شريعته !

إنه كما قيل بحق : ملك .. تغار النيّران إذا بدا .. أسمعت أن النيران تغار؟!

الواقعية :

ثم لا تنس كيف كان الفاروق هنا يمثل واقعية المنهج الإسلامى : فعلى الرغم من أن المجتمع كان من الطهر فى قمته .. ولكنه مع ذلك يحتاط .. حتى لا يكون اختلاط .. تقديرا منه لغريزة عمياء لا ترى . صماء لا تسمع ، وانطلاقا من قوله عز وجل : ﴿فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

وهو الذى كان يؤذن فى الحجيج فور الفراغ من أداء المناسك : يؤذن بالعود إلى الوطن بعد هذا الاغتراب قائلاً :

يا أهل اليمن : يمنكم . يا أهل الشام : شامكم . يا أهل العراق : عراقكم.

وهكذا ينزل من فوق عرش السلطان .. ثم يضع نفسه تحت رحمة واحد من رعيته ليبيع فيه ويشترى .. ابتغاء وجه الله عز وجل ..

ولقد كان فى وقت ما مشرفا على القتال الذى يدور فى جبهات ثلاث : فى الشام . وفى مصر .. وفى العراق .. ثم لم يمنعه ذلك من تحسس آلام الأمة هناك فى الكفور والنجوع .

لقد سمع أنين الأسرة الجائعة يوما .. وكان يكفيه أن يرسل واحدا من أعوانه لينوب عنه فى إسعادها .

ولكنه صمم على « إدخال» السرور بنفسه إلى البيت .. فحمل الدقيق والسمن .. على ظهره .. ولم يكتف بهذا .. بل ظل فى البيت حتى بدأ الصغار يضحكون .. وعندئذ انتهت مهمته فخرج ..

هذه المهمة التى لم تكن فقط حفنة من الدقيق يسد بها الجوعة .

وإنما هى العاطفة المشبوبة يندى بها القلب : إن الأطفال فى حاجة فعلا إلى دقيق يغذى جسومهم . .

ولكنهم قبل ذلك فى حاجة إلى السرور ينمى أنفسهم . .

وإلا . . فلو لم يأخذوا حظهم من هذا السرور لنمت فيهم أشواك الأنانية . . فى مجتمع لم يمنحهم من عطفه ما به تطمئن قلوبهم . .

مؤكدا من مبادئ التربية ضرورة إشباع حاجة الأطفال إلى الأمن النفسى من حيث لا يكفى الأمن الغذائى وحده . . ومن أجل ذلك لم يتركهم حتى ضحكوا.

• • •

أهمية اللين

وعليك باستخدام المداراة والملاينة فى القول . . حتى تهدأ النفوس ثم بعد ذلك تدعوهم إلى حكم الشرع فى الزنا . . وأسبابه . . ونتائجه فى المجتمع أكثر من عشرة آلاف قضية أمام المحاكم يطلبون فيها إثبات النسب ، وهذا يعنى أن المجتمع ينذر بالخطر بسبب العلاقة الآثمة المحرمة .

ويقول المرحوم الشيخ محمد الغزالى : بين الخطبة والأحداث العابرة ، والملابسات المحيطة والجماهير السامعة ، علاقة لا يمكن تجاهلها ، ومما يزرى بالخطيب ويضيع موعظته أن يكون فى واد والناس فى واد والزمان والمكان فى واد آخر ولأمر ما نزل القرآن منجمًا عن ثلاث وعشرين سنة فقد تجاوب مع الأحداث وأصاب مواقع التوجيه إصابة رائعة .

ولما كان القرآن شفاء للعلل الاجتماعية الشائعة ، فإن الخطيب يجب عليه أن يشخص الداء الذى يواجهه ، وأن يتعرف على حقيقته بدقة ، فإذا عرفهم واستبان

أعراضه وأخطاره رجع إلى الكتاب والسنة فنقل الدواء إلى موضع المرض وذلك يحتاج إلى بصيرة وحذق ، فإن الواعظ القاصر قد يجىء بدواء غير مناسب فلا يوفق فى علاج ، وربما أخطأ ابتداء فى تحديد العلة فجاءت خطبته لغوا وإن كانت تتضمن مختلف النصوص الصحيحة] (١) .

وفى هذا الصدد يقول الشيخ محمد رشيد رضا :

العلم بحالة من توجه إليهم الدعوة فى شئونهم واستعدادهم وطبائع بلادهم وأخلاقهم ، علم تقويم البلدان ليعد الدعاة لكل بلاد منها عدتها إذا أرادوا السفر إليها ، العلم بلغات الأمم التى تراد دعوتها ، العلم بالفنون والعلوم المتداولة فى الأمم التى توجهها إليها الدعوة ولو بقدر ما يفهم به الدعاة ما يورد على الدين من شبهات تلك العلوم .

والجواب عنها بما يليق بمعارف المخاطبين بالدعوة ، معرفة الملل والنحل ومذاهب الأمم فيها ليتيسر للدعاة بيان ما فيها من الباطل فإن من لم يتبين له بطلان ما هو عليه لا يلتفت إلى الحق الذى عليه غيره ، وإن دعاه إليه] (٢) .

• • •

أهمية القدوة

يقول عز وجل : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦] .

فهذا مثل عالم السوء الذى يعمل بخلاف علمه ، وتأمل ما تضمنته هذه الآية من ذمه ، وذلك من وجوه :

---

(١) محمد الغزالى : مائة سؤال عن الإسلام ص٢٥٦ .

(٢) تفسير المنار ج٤ ص٣٧ .

أحدها : أنه ضل بعد العلم واختار الكفر على الإيمان عمدا لا جهلا .

وثانيها : أنه فارق الإيمان مفارقة من لا يعود إليه أبدا ، فإنه انسلخ من الآيات بالجملة كما تنسلخ الحية من قشرها ، ولو بقى معه منها شيء لم ينسلخ منها .

وثالثها : أن الشيطان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه ، ولهذا قال : ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ ولم يقل تبعه .

فإن فى معنى أتبعه أدركه ولحقه ، وهو أبلغ من تبعه لفظا ومعنى .

ورابعها : أنه غوى بعد الرشد . والغى : الضلال فى العلم والقصد . وهو أخص بفساد القصد والعمل ، كما أن الضلال أخص بفساد العلم والاعتقاد ، فإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر ، وإن اقترنا فالفرق ما ذكر .

وخامسها : أنه سبحانه لم يشأ أن يرفعه بالعلم فكان سبب هلاكه لأنه لم يرفع به فصار وبالا عليه . فلو لم يكن عالما كان خيرا له وأخف لعذابه .

وسادسها : أنه سبحانه أخبر عن خسة همته وأنه اختار الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى .

وسابعها : أن اختياره للأدنى لم يكن عن خاطر وحديث نفس ، ولكنه كان عن إخلاد إلى الأرض ، وميل بكليته إلى ما هناك ، وأصل الإخلاد اللزوم على الدوام كأنه قيل : لزم الميل إلى الأرض .

ومن هنا يقال : أخلد فلان بالمكان إذا لزم الإقامة فيه .

قال مالك بن نويرة : بأبناء حى من قبائل مالك ، وعمرو بن يربوع أقاموا فأخلدوا .

وعبر عن ميله إلى الدنيا بإخلاده إلى الأرض ؛ لأن الدنيا هى الأرض وما فيها وما يستخرج منها من الزينة والمتاع .

وثامنها : أنه رغب عن هداه واتبع هواه ، فجعل هواه إماما له يقتدى به

ويتبعه .

وتاسعها :أن شبهه بالكلب الذى هو أخس الحيوانات همة ، وأسقطها نفسا وأبخلها ولأشدها كلبا . ولهذا سمى كلبا .

وعاشرها :أنه شبه لهثه على الدنيا وعدم صبره عنها وجزعه لفقدها وحرصه على تحصيلها بلهث الكلب فى حالتى تركه والحمل عليه بالطرد وهكذا .

هذا إن ترك فهو لهثان على الدنيا ، عن وعظ وزجر فهو كذلك ، فاللهث لا يفارقه فى كل حال كلهث الكلب .

• • •